إخفاقات ملوك بلاد آشور العسكرية

أ.د. صفوان سامي سعيد
كلية الآثار – جامعة الموصل

الملخص:

يتناول البحث دراسة لأحد الجوانب السياسية المهمة في بلاد آشور ودليل لمعرفة الأبعاد الحقيقية التي أدت في نهاية المطاف إلى إنهاك ماكنة الحرب الآشورية وسقوط نينوى عام ٦١٢ق.م، إذ بات من المؤكد من استقراء الحوليات الملكية الآشورية وتحليل مضامينها، فضلاً عن ما ورد في بعض نصوص الأقوام المعاصرة لبلاد آشور إن هناك جملة من الأدلة النصية المباشرة وغير المباشرة أمكننا تشخيصها تفصح عن إخفاقات عاناها الملوك الآشوريون في سياساتهم الخارجية ومنازلاتهم العسكرية لأسباب تطرقنا إليها بشيء من التفصيل في متن البحث، إذ قسم البحث إلى محورين أساسيين يمثل الأول عرض أدلة الإخفاق غير المباشرة والمتمثلة في ظاهرة الإدعاء بالنصر وقهر الأعداء فضلاً عن بيان المبالغة في ذكر خسائر الأعداء البشرية، وهي سمة تجاوزت الحقيقة في ذلك تبعاً لاستقراء تطور الأحداث السياسية في بلاد آشور، وطبقاً لما ورد على لسان الملوك الأبناء والأحفاد المنافية لحقيقة ما ورد في حوليات آبائهم الملوك فضلاً عن التناقض الواضح في بيان خسائر الأعداء البشرية في النصوص الملكية ذات المضمون الواحد، في حين تناول المحور الثاني عرضاً لأدلة الإخفاق المباشرة، إذ قسم هذا المحور إلى شطرين تناول الأول منه أدلة الإخفاق السياسي والمتمثلة في امتناع عدد من المدن والممالك التابعة للنفوذ الآشوري عن تقديم الإتاوة لملوك بلاد آشور، في حين خصص الشطر الثاني لبيان الإخفاقات العسكرية وهذا ما أمكننا نلمسه في النصوص الآشورية ذاتها فضلاً عن بعض نصوص الأقوام التي تصدت لنفوذ الآشوريين وتوسعاتهم العسكرية في المنطقة إذ قسمت أدلة الإخفاقات العسكرية تبعاً للجهات والأقوام التي حاربوها.

Abstract
The Military Failure of Assyrian Kings

This research tackles one of the important political aspects in Assyria in addition to its characteristic as an evidence enables us to recognize the genuine dimensions which led to the exhaustion of the Assyrian military mechanism and finally the collapse of Nineveh in 612B.C.

It has become quite clear through the induction and analysis of Assyrian royal annals and the cuneiform documents related to other nations who simultaneously lived with the Assyrians there are several direct and indirect evidences indicate the real. shortcomings the Assyrian kings in foreign affairs and their military campaigns. This is, in deed, due to several reasons which have been thoroughly tackled in this paper.

The present research is divided into two main parts:

Part one shows the indirect evidences of the above mentioned shortcomings which are embodied in the repeated allegations of false triumphs added to the exaggerations with regard to showing foes' casualties. These exaggerations have been proved as supernatural after the induction of the political development added to what have been referred to by posterior monarchs that contradicts with the ancestral annals. In addition to the crystal clear contradiction with regard to the supernatural allegations of foes' casualties found in monarchical annals of same content.

Part two tackles the direct evidences of the above mentioned shortcoming, and this part is subdivided into :

First, shows the evidences of political failure which are embodied in the disobedience of some petty states and kingdoms which were under the leverage of the Assyrian kings.

The second shows the military shortcomings found in the Assyrian texts added to the texts of peoples who defied the Assyrian leverage and military aggrandizements in the region. Furthermore, the military shortcomings are classified in the light of the Assyrian' attacks from one hand and the nations who invaded on the other.

المقدمة

كثيراً ما خلفت أَخبار حملات ملوك اشور العسكرية، والمخلفات المادية الأخرى من مشاهد المنحوتات التي تباهى فيها الآشوريون بانتصاراتهم وأساليبهم في قمع التمردات ومواجهة التحديات انطباعاً ظل ملازماً لدى كثيرٍ من القراء والباحثين حول صفة وقوة هذه الأمة المحاربة فعكفوا في معظم بحوثهم على بيان طبيعة سياسة ملوك بلاد آشور في تجهيز الحملات وتسيير الجيوش وأساليبهم في التوسع، متغاضين في الوقت نفسه عن كشف الستار والحديث عن ركن هام، وحقيقة يمكن أن نتلمسها من خلال دراسة تلك الحملات وتتبع تفاصيلها إلا وهي إخفاقات ملوك بلاد آشور في تحقيق ما كانوا يرجونه من تلك الحملات.

فعلى الرغم من أهمية ما كتب في المؤلفات بالعربية والأجنبية عن أسباب انهيار المملكة الآشورية وسقوط نينوى عام ٦١٢ق.م غير أن ما تطرق إليه الباحثون حتى الآن كان منصباً بشكل رئيس على الحديث عن تداعي الأحداث السياسية التي مرت على المملكة الآشورية بعد نهاية حكم الملك آشور-بانِ-ابلُ، (آشوربانيبال) ٦٦٨-٦٢٧/٦ق.م وتولى أبنائه العرش الآشوري من بعده، من دون إعطاء تمهيدٍ أبعد لمجريات أخرى خفية كانت وراء تصدع ذلك البناء الشامخ الضخم ألا وهي تقهقر الآشوريين في منازلاتهم العسكرية والسياسية.

قد يبدو من الصعب حقاً تشخيص ما يمكن أن نسميه خسارة أو إخفاقاً في حملات الملوك الآشوريين في ظل انفرادية الرؤيا الآشورية للأحداث وقلّة ما وردنا بهذا الخصوص في مدونات الأقوام الأخرى، فمن المعروف أن الكتابات الملكية الآشورية كانت تمثل إحدى أبرز مظاهر القوة عند الآشوريين بوصفها أسلوب الدعاية والأعلام والمتيسر لديهم والتي تعكس على نحو دائم قوتهم وانتصاراتهم الحربية وتخفي خسائرهم المادية والبشرية لكن على الرغم من ذلك كلّه فإن المتتبع لتفاصيل تلك المدونات وقراءة الظروف أو الأحداث السياسية والمعيشية الصعبة التي مرت على المملكة الآشورية والتي كادت أن تقضي على وجودها كما جاء ذلك على لسان ملوكها أنفسهم، من ذلك ما ورد في كتابات الملك توكلتي-اَبلُ-ايشرا الأول ، (تگلاتبليزر) الأول ١١١٥-١٠٧٧ق.م عندما ذكر في إحدى حولياته الملكية ما نصه:

"أعدت بناء (و) أكملت القصور محل السكن الملكي العائدة للمدن الرئيسة في (مختلف) المقاطعات العائدة لكل بلادي التي هجرت إبان السنوات الصعبة أيام أسلافي وأصبحت أطلالاً وخراباً وأعدت إصلاح التحصينات الضعيفة لبلادي"[1].

كما تحدّث الملك آشور-دان الثاني (٩٣٤-٩١٢ق.م) في إحدى كتاباته الملكية عن شعب بلاد آشور المنهك حسب تعبيره قائلاً الآتي:

"أعدت شعب بلاد آشور المنهك الذي هجر مدنه ومنازله بسبب الحاجة والعوز والمجاعة وذهب إلى بلدان أخرى وأسكنتهم في مدن وبيوت ملائمة لسكنهم بسلام"(٢).

إذ يستدل من مضامين هذه النصوص على حقيقة جوهرية تمثلت في أزمات سياسية واقتصادية عصفت بالمملكة الآشورية لأسباب يحتمل تعلقها بإخفاقات مرت على بعض ملوكها وهم في سعيهم إلى بسط سيطرتهم ونفوذهم على الموارد الأولية وطرق التجارة، فضلاً عن تفاقم خطر القوى الخارجية في المنطقة (مثل الآراميون والاورارتيون) وتأثيرها المباشر على الحياة في المملكة الآشورية بأسرها، كما جاء ذلك على لسان الملك آشور–دان الثاني أيضاً عندما وصف خطر الآراميين على سكان بلاد آشور في إحدى كتاباته الملكية قائلاً بخصوصهم الآتي:

"الآراميون الذين دمروا سكان بلاد آشور منذ عهد جدي شُلمان–اشريد (شلمنصر الأول ١٢٧٤–١٢٤٥ق.م) ملك بلاد آشور بواسطة × × × والقتل العمد باعوا كل أولادهم وبناتهم، بأمر سيدي آشور أخذت الأسرى وسددت عليهم خسارة ماحقة"(٣).

لقد بات لنا من المؤكد أنه بقدر الانتصارات التي حققها الملوك الآشوريين على صعيد سياساتهم التوسعية ضد المناطق والممالك المجاورة إلا أنهم عانوا في الوقت نفسه من إخفاقات تكبدها الجيش الآشوري في مسعاه إلى تحقيق ذلك، فكثيراً ما استوقفتنا الشواهد النصية الواردة في الحوليات الملكية الآشورية عند أمور يُستدل بها على تقهقر الجيش الآشوري في حسم نتائج الحروب التي خاضها لصالحه فعمد البعض من أولئك الملوك إلى تضليلها وعدم الاعتراف بها أو إقرارها في حولياتهم، ربما لأسباب تعود إلى تمتين وحدة الجيش الآشوري ورفع معنويات مقاتليه والحدّ من تأثيرات الأعداء على مجريات الحروب والعمل على خلق حالة من الطمأنينة بين أفراد الجيش وسكان بلاد آشور، وذلك من خلال التظاهر بالانتصار، ويمكن تقسيم تلك الشواهد إلى محورين رئيسين هما:

أولا: الادعاء بالانتصار وقهر واخضاع الاعداء

يمثل الادعاء أحد أدلة الإثبات غير المباشرة في تشخيص ملامح الإخفاقات في حملات الملوك الآشوريين، لذلك فإن التحقق من مدى مصداقيته يتطلب منا إلماماً بمجمل الأحداث السياسية والعسكرية التي تطرقت إليها تلك الحوليات الملكيةعبر تأريخها المتعاقب كي يتسنى لنا معاينة الحقيقة، وإظهار ما يمكن أن نسميه ادعاءً. لكن مهما يكن من أمر فإن المتتبع لمجريات الأوضاع السياسية الواردة في تلك النصوص يجد أن ما جاء على لسان الملوك الآباءالاوائل حول انتصاراتهم العسكرية تكون في بعض الأحيان مناقضة للحقيقة عما ورد في كتابات أبنائهم

أو أحفادهم تاليا، ولعلّ خير دليل يمكن أن نستشفه في هذا الخصوص ما جاء في إحدى كتابات الملك شُلمان–أشريد الأول عندما وصف نفسه متباهياً بالقول:

ka-ši-id lu-ul-lu-bi-i ù šu-ba-ri-I ša-li-il ge-ru-ú za-ma-ni e-li-iš ù ša-ap-li-iš [٤].

"قاهر لُلُبُ Lullubu و شُبرُ Šubaru الذي واجه بجسارة الخصوم الأعداء أعلى وأسفل"

أو كما لقب نفسه أيضاً في موضع آخر من نصوصه بقوله:

ka-ši-id lu-ul-lu-mi-i ù šu-ba-ri-i da-iš KUR.KUR ia-bi[٥].

"قاهر الـ لُلُمُ Lullumu و شُبرُ الواطئ على بلدان الأعداء" فالادعاء بزعمه أنه قاهر بلاد شُبرُ في كلا النصين لا تؤيده الأحداث التاريخية في الفترات اللاحقة بدليل ما ورد في إحدى كتابات ابنه وخليفته في الحكم توكلتي–ننورتا الأول (١٢٤٤–١٢٠٨ق.م)، عندما ذكر في إحدى حولياته الملكية ما نصه:

"(كل) بلاد شُبرُ (وكل) جبل كَشيري Kašiiari فضلاً عن بلاد اَلزُ Alzu التي تمردت سابقاً إبان حكم والدي شُلمان–اشريد (الأول) ملك الكون وامتنعت (عن دفع) الإتاوة واتحدت تحت أمر واحد. صليت لأسيادي آشور والآلهة العظام وزحفت باتجاه جبل كَشيري وسيطرت مثل اللجام على بلاد شُبرُ وبلاد اَلزُ وملوكهم المتحالفين" [٦].

ولم يتوقف الادعاء عند هذا الحد بل نجد صدى هذا الأمر واضحاً أيضاً في مدونات العديد من الملوك الآخرين، من ذلك ما جاء في كتابات الملك توكلتي–ابلا–ايشرا الأول، عندما تطرق في السنة الأولى من حكمه بخصوص حملته العسكرية ضد بلاد كَتمخُ Katmuhu(لم يعرف موقعها حاليا) قائلاً الآتي:

"في ذلك الوقت تقدّمت نحو بلاد كتمخُ غير الخاضعة التي امتنعت (انسحبت) عن دفع الإتاوة المفروضة لسيدي آشور، قهرت كل بلاد كَتمخُ وجلبت أسلابهم وأملاكهم وممتلكاتهم وحرقت وأبدت ودمّرت مدنهم وبقيت سكان بلاد كتمخُ الذين هربوا من أسلحتي وعبروا عبر مدينة شِرِشُّ Šereššu الواقعة على الضفة المقابلة لنهر دجلة، واتخذوا من تلك المدينة حصنهم ..... عبرت نهر دجلة وقهرت مدينتهم المحصنة شِرِشُّ ونثرت (جثث) محاربيهم في المعركة مثل كوم الحبوب وجعلت دماءَهم تجري في وديان وسهول الجبال" [٧].

فهذا التباهي والوصف الدعائي بشأن الانتصار الذي سدده توكلتي–ابل–اِشرا الأول بحق بلاد كَتمخ على حد زعمه يفصح أن تلك البلاد لم تعد لها القدرة على القيام مرة أخرى إبان السنوات القليلة القادمة في أقل تقدير، غير أن وقائع الأحداث تشير إلى العكس من ذلك ففي السنة التالية شنَّ الملك المذكور حملة أخرى أشدّ ضراوة على ما يبدو ضد البلاد ذاتها إذ نجده يقول بخصوصها الآتي:

"ببسالة انقضاضي تقدّمت للمرة الثانية نحو بلاد كَتمخ فقهرت كل مدنهم وحملت أسلابهم وممتلكاتهم وملكيات لا حصر لها وحرقت ومحوت ودمّرت مدنهم وبقايا قواتهم الذين أصابهم الرعب من ضراوة أسلحتي جثموا خوفاً من قوتي وولعي بالقتال فالتجئوا إلى المرتفعات في منطقة جبلية وعرة لأجل الحفاظ على حياتهم تسلقت بعدهم إلى قمم الجبال الشاهقة وسلاسل جبلية محفوفة بالمخاطر ..... فقهرتهم ومثل العاصفة العملاقة كومت جثث محاربيهم على السلاسل الجبلية وجعلت دماءَهم تسيل في جروف وسهول الجبال"[٨].

ومن الأدلة الأخرى عن مظاهر الادعاء بالنصر ما جاء في حوليات الملك شُلمان–اَشريد الثالث،(شلمنصر الثالث) ٨٥٨–٨٢٤ق.م بشأن حملاته العسكرية المتتالية ضدّ إحدى الدويلات الآرامية في سوريا وهي بيت–ادِن Bit-Adini المتمثلة بقاياها بتل–بارسب Tell-Barsip والعائدة لأحد الزعماء الآراميين وهو اَخُنُ Ahunu(لم يعرف فترة حكمه) ، إذ نجده يقول بخصوصه في إحدى كتاباته الملكية الآتي:

"اَخُنُ رجل بيت–ادِنِ الذي تبجح بالقوة والبدنية منذ (أيام) آبائي الملوك، مع بداية حكمي أسرتهُ في مدينتهِ وانتزعت حصاده وقطعت بساتينه. ومن اجل إنقاذ حياته عبر نهر الفرات وحصن نفسه في مدينة شِتَمَرت Šitmrat الواقعة على قمة الجبال على ضفة نهر الفرات التي تتدلى من السماء مثل الغيم. في السنة الثانية ذهبت قاصداً له أقمت حصاراً على قمة الجبال. جنودي طاروا ضدهم مثل طير انزُ Anzu انتزعت (نقلت) ١٧٥٠٠ من قواته وأخذت لنفسي اَخُنُ سوية مع قواته وآلهته وعرباته وخيوله وجلبتهم إلى مدينتي آشور واعتبرتهم مثل سكان بلادي"[٩].

ومن تحليل أبعاد النص الملكي يتبيّن أن الملك الآشوري لم يتمكن في السنة الأولى من حكمه مِنَ القضاء على مشكلة أَخُنُ الذي حصن نفسه في مدينته ذات التحصينات المنيعة على الآشوريين على ما يبدو بدليل ادعاء شلمانُ–اَشريد الثالث أنه أسره في مدينته ina URU-šú e-sir-šu ولهذا السبب فقد أعاد الكرة مرة أخرى في السنة الثانية من حكمه زاعماً انتصاره في هذه الجولة على اَخُنُ الذي أُخذ أسيراً مع قواته إلى مدينة آشور على حدّ قوله، غير أن الوقائع التاريخية تظهر بطلان ادعائه أيضاً، إذ نجده في موضع آخر من كتاباته يتحدّث بخصوص اَخُنُ قائلاً الآتي:

"في السنة الثانية من حكمي عبرت نهر دجلة واقتربت نحو مدينة تل – بارسب Tell-Barsip استوليت على مدن اَخُنُ رجل بيت–اَدِنِ وأسرته في مدينته عبرت نهر الفرات أثناء فيضانه واستوليت على مدينة دَبِكُ Dabigu حصن بلاد خاتي Hatti سوية مع مدن بضواحيها في السنة الثالثة من حكمي أصبح اَخُنُ رجل بيت–ادِن مرتعباً من مواجهة قوة أسلحتي فهجر مدينته الملكية تل – بارسب وعبر نهر الفرات في السنة الرابعة من حكمي في اليوم الثالث عشر من شهر ايار تحركت من مدينة نينوى وعبرت نهر الفرات أثناء فيضانه ولاحقت اَخُنُ رجل بيت–ادنِ الذي جعل جبل شتمرَت Šitamrat حصنه، قمة الجبل الواقعة على ضفة نهر الفرات تتدلى من السماء مثل الغيم، حاصرت واستوليت على قمة الجبل واستوليت على اَخُنُ سوية مع آلهته وعرباته وخيوله و ٢٢٠٠٠ من قواته وجلبتهم إلى مدينتي آشور"[١٠].

ولعلّ من الحقائق التي يمكن استنباطها من هذا النص الملكي أن عبارة "حبسته أو أسرته في مدينته"، تُعد بحد ذاتها دليلاً قاطعاً على إخفاق الملك الآشوري في السيطرة على المدينة واقتحام أسوراها المنيعة، وان صحّ هذا الرأي، فإن ادعاء ملوك آخرين بهذه العبارة يعدّ هو الآخر دليلاً على فشلهم في الاستحواذ على هذه المدينة أو تلك وإنْ زعموا الانتصار عليها، ولعل هذا ما يمكن أن نستشفه من إحدى كتابات الملك توكلتي–ابل–ايشرا الثالث، (تـگـلاتبليزر) الثالث ٧٤٤–٧٢٧ق.م عندما قال بخصوص حملته ضد ملك دمشق ريزين Rezin الآتي:

"أقمت مخيمي مدة ٤٥ يوماً حول مدينته (دمشق) وحبسته (فيها) مثل الطير في القفص وقطعت حدائقه وبساتينه التي لا حصر لها ولم أترك أحداً حيّاً"(١١).

ومهما يكن من أمر فثمة أدلة أخرى عن مظاهر الادعاء بالنصر على الأعداء جاءت هذه المرة على لسان الملك الآشوري سين- اخي- ريبا (سنحاريب) ٧٠٤–٦٨١ق.م عندما ادعى في حملته العسكرية على بلاد عيلام بأنه:

"صب الخوف والرعب على كل بلاد عيلام والذين تركوا بلدانهم لأجل إنقاذ حياتهم"(١٢)

غير أن واقع الحال كان بخلاف ذلك إذ كان رد فعل بلاد عيلام قوياً فبينما كانت قوات الملك الآشوري في جنوبي العراق بالقرب من الساحل العيلامي قامت عيلام بقيادة ملكها خَلُشُ – انشُشينك Hallushu-inshushinak الأول بالهجوم نحو بلاد أكد ودخول مدينة سبار في نهاية شهر تِشرِ Tishri (ايلول–تشرين الأول) حيث أسر ملك بابل آشور–نادن–شُمِ واقتيد إلى بلاد عيلام ونصّب بدلا منه أحد البابليين المدعو نركال–اوشيزب أوقع الهزيمة بالآشوريين كما جاء خبر تلك الواقعة في أحد النصوص البابلية المعروفة بنصوص التأريخ التعاصري، إذ نقرأ ما نصه:

" خَلُشُ – انشُشينك ملك بلاد عيلام زحف نحو بلاد أكد ودخل مدينة سبار في نهاية شهر تِشرِ وذبح سكانها. الإله شمش لم يخرج خارج ابرَا Ebabbarra (معبده) آشور–نادن–شُمِ اخذ أسيراً ونقل إلى بلاد عيلام ملك بلاد عيلام وضع نركل–اوشيزب على العرش في بلاد بابل وأوقع الهزيمة ببلاد آشور KUR aš-šur ihakan"(١٣).

ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن تشخيصها في مدونات هذا الملك ما ورد في حملته العسكرية ضدّ ملك يهوذا حزقيا وحصاره لمدينة أورشليم عام ٧٠١ق.م حيث ادعى سين–اخي–ريبا انتصاره عليه قائلا بخصوصه الآتي:

"وبالنسبة لحزقيا اليهودي الذي لم يخضع لنير (سلطتي) حاصرت واستوليت ونهبت ٤٦ من مدنه المحصنة مع عدد لا حصر له من القرى المحيطة وحبسته في مدينته الملكية أورشليم مثل الطير في القفص وفرضت عليها اعمال السخرة(الاجبارية)"(١٤).

غير أن مجريات الأحداث وما وردنا في نصوص الطرف الآخر تظهر أن الملك الآشوري تكبد خسائر من ذلك الحصار واضطر نتيجة ذلك إلى التقهقر والرجوع إلى نينوى ربما كان على اثر الثورة التي قادها مردوك-ابلا-ادينا Marduk-Apla-Idina الثاني (مردوخ-بلادن) من قبيلة يَاكين Iakin الكلدية ضد النفوذ الأشوري في بابل إذ يستدل ما ورد في التوراة (سفر الملوك الثاني ١٩/٢٢-٢٧)،على حقيقة ذلك التقهقر على الرغم من ما فيه من مبالغة بخصوص عدد قتلى الآشوريين إذ نقرأ:

"لذلك هكذا قال الرب عن ملك آشور لا يدخل هذه المدينة ولا يرمي هناك سهماً ولا يتقدم عليها بترس ولا يقيم عليها مترسة في الطريق الذي جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي وكان تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً ولما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة، فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى وفيما هو ساجد في بيت نسروخ إلهه ضربه ادر ملك وشراحر ابناه بالسيف ونجوا إلى ارض ارارط حاليا وملك اسرحدون ابنه عوضاً عنه".

ومن الشواهد النصية الأخرى التي يمكن إدراجها عن مظاهر الإدعاء ما ورد في كتابات ابنه وخليفته في الحكم الملك آشور-آخ-ادن، (اسرحدون)٦٨٠-٦٦٩ق.م ما ذكره بخصوص حملته العسكرية على طهرقة ملك مصر من الاسرة الخامسة والعشرون الكوشية حيث أعلن الملك الآشوري نفسه ملكاً على مصر العليا والسفلى وأثيوبيا وهو ادعاءً تجاوز الحقيقة في ذلك إذ تكرر هذا الادعاء في منحوتة وضعها الملك المذكور في سنجرلي (سمأل) أثناء عودته إلى بلاد آشور حيث صور الملك الفاتح ماسكاً بيده حبلاً اخترق شفاه شخصين راكعين أمامه أحدهما يمثل ملك صور في حين يظهر الآخر بوضوح بأنه طهرقة.

وفي الواقع أن طهرقة كان لا يزال حراً وفي موقف مكنه من ممارسة تأثير كبير فما أن ابتعد الجيش الآشوري الرئيس من مصر إلا وعاد طهرقة واقنع بعض أمراء مصر السفلى لرفض لسيادة الجديدة واستعاد منف (البدرشين الحالية)مما دفع آشور–آخ–ادن عام ٦٦٩ق.م للزحف مرة ثانية نحو مصر لمعالجة الموقف غير أن الموت كان مصيره وهو في الطريق(١٥).

ثانياً: ظاهرة تكرار الحملات العسكرية والمبالغة في بيان خسائر الاعداء المادية والبشرية المتعلقة بها.

لعلّ ما تجدر ملاحظته في سياسة الملوك الآشوريين الخارجية أنهم لم يتهاونوا في تسيير الحملات العسكرية المتتالية لمنطقة أو اتجاه محدد مهما كان ثمن ذلك، ربما لأسباب تتعلق بعدم تقبلهم أو اعترافهم بالهزيمة أو الخسارة أو لإضعاف جماح القوى الخارجية المؤثرة بالضربات العسكرية المتتالية، ولعلّ حملات الملك توكلتي–ابلُ–ايشرا الأول والملك شُلمان–اشريد الثالث المذكورة آنفاً خير دليل على ذلك. لكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أنه على الرغم من

تكرار الحملات نجد أن المبالغة في بيان حصيلة قتلى الأعداء كانت هي الأخرى الصفة البارزة في هذه النصوص.

فكثيراً ما وقف الباحثون في دراستهم لنصوص الحوليات الملكية الآشورية على مسائل أثارت الكثير من تحفظاتهم وشكوكهم حول مدى مصداقيتها، فعدّها البعض منهم أنها تدخل ضمن نطاق الدعاية أو المبالغة لكنهم لم يحاولوا إثبات صحتها من ذلك بيان حصيلة أعداد القتلى والأسرى في صفوف الأعداء غير أن دراسة مضامين النص الملكي الواحد ومقارنته بالنسخ الأخرى المكررة من النص ذاته تظهر حقيقة ذلك الأمر، ولعلّ خير دليل يمكن أن نستشهده في هذا الصدد هو حملات الملك شلمانُ–اشريد الثالث المتتالية التي خاضها إبان سنوات حكمه السادسة والعاشرة والحادية عشرة والرابعة عشرة ضد تحالف مدن سواحل شرق البحر المتوسط المؤلف من اثني عشر ملكاً بزعامة مملكة دمشق في عهد ملكها حدد–ازِر Hadad-ezer (ادد–ادرِ Adad-idri) إذ نقرأ مثلاً في حملته العسكرية ضد هذا الحلف إبان السنة السادسة من حكمه في موقع مدينة القرقار العبارة الآتية:

"بقوة سيدي آشور المتعالية التي منحت لي ومع قوة الأسلحة التي أعطيت لي واللواء المقدس الذاهب أمامي حاربتهم وقهرتهم من مدينة قرقار فضلاً عن كَلزُ Gilzau وقتلت بالسيوف ١٤٠٠٠ من مقاتليهم"(١٦).

وقد ذكرت تفاصيل تلك الحملة في موضع آخر من كتاباته إذ نقرأ الآتي:

"تحركت من مدينة خَلمَن Halman واقتربت نحو مدينة القرقار حدد–ازِر الدمشقي وارخُلينُ Irhulēnu الـ خَمَتِ Hamatite سوية مع أثني عشر ملكاً على شاطئ البحر وثقوا بقوتهم المتحدة، هاجموني وشنوا الحرب والنزال وحاربتهم وقتلت بالسيوف ٢٥٠٠٠ من مقاتليهم واستوليت على عرباتهم وفرسانهم ومعداتهم العسكرية"(١٧).

وقد تكرر ذكر هذا النص أيضاً في موضع آخر من كتاباته لكن الاختلاف والتناقض كان أيضاً في ذكر عدد قتلى الأعداء إذ نقرأ ما نصه:

"في ذلك الوقت حدد–ازِر (ادد–ادِر) الدمشقي، ارخُلين الـ خَمَتِ سوية مع ملوك بلاد خاتّي و(ملوك أخرين) على شاطئ البحر وثقوا بقوتهم المتحدة هاجموني وشنوا الحرب والمعركة، بأمر السيد العظيم سيدي الإله آشور حاربتهم وقهرتهم واستوليت على عرباتهم وفرسانهم ومعداتهم الحربية وقتلت بالسيوف ٢٠٥٠٠ من مقاتليهم"(١٨).

ولم تتوقف ظاهرة المبالغة في بيان خسائر الأعداء البشرية عند هذا الرقم بل إننا وجدنا في موضع آخر من حولياته إشارة تذكر أن خسائر هذا الحلف وصلت إلى ٢٩٠٠٠ على حد زعمه إذ نقرأ:

"بأمر السيد العظيم سيدي آشور والإله ننورتا اللذان يُحبان كهونيتي حاربتهم وقهرتهم واستوليت على عرباتهم وفرسانهم ومعداتهم الحربية وقتلت بالسيوف ٢٩٠٠٠ من مقاتليهم"[١٩].

فالملاحظ مثلاً إن تكرار الحملات التي خاضها شُلمان–اشريد الثالث ضد هذا الحلف بصرف النظر عن إستراتيجية السياسة الآشورية في تسيير الحملات، يعدّ بحد ذاته دليلاً على عدم حسم نتائج المعركة لصالحه في كسر شوكة ذلك الحلف الذي ظل متماسكاً في وجه كل تلك الحملات المتتالية، فضلاً عن ذلك فإن التناقض والمبالغة الواضحة في بيان خسائر الأعداء البشرية إبان السنة السادسة من حكمه يمثل دليلاً حول انعدام صفة الشفافية في الرواية الآشورية للأحداث، إذ عمد الملك الآشوري إلى هذه المبالغة بهدف رفع معنويات الجيش والشعب الآشوري وتمتين وحدته وإخفاء خسائرهم المادية والبشرية وربما لهذا السبب لم يعاود الملك الآشوري الكرة مرة أخرى ضدّ هذا الحلف إلا بعد انقضاء أربعة سنوات من تاريخ تلك الحملة، وذلك إبان السنة العاشرة من حكمه ولم يستطع تفكيك هذا الحلف إلا بعد السنة الرابعة عشرة من حكمه وذلك بعد وفاة اثنين من أبرز الشخصيات في الحلف هما أخاب ملك السامرة وادد–ادر ملك دمشق وكان الأخير قد اغتيل استناداً إلى ما ورد في العهد القديم (سفر الملوك الثاني ٨:١٥) من قبل خادمه حزائيل Hazael الذي أغتصب العرش بعد ذلك.

وبقدر ما أدرجناه من أدلة الإخفاق غير المباشرة، فإننا نمتلك في الوقت نفسه أدلة أخرى مباشرة تفصح على نحو صريح عن إخفاقات تكبدها الملوك الآشوريين على الصعيد السياسي والعسكري أتت على لسان الملوك أنفسهم أو على لسان أبنائهم أو أحفادهم الذين غالباً ما اعترفوا بقوة وبسالة خصومهم فعبروا عن ذلك بمفاهيم تدل عن حقيقة هذا الأمر، من ذلك ما جاء في كتابات الملك توكلتي–ابل–ايشرا الأول، عندما قال في أحد نصوصه الملكية:

KUR sa-ra-uš KUR am-ma-uš ša iš-tu u_4-um sa-a-te ka-na-ša la-a i-du-ú ki-ma a-bu-ba ás-hu-up[٢٠].

"دمرت بلدان سَرَوش Sarauš و امّوش Ammauš التي لم تعرف الخضوع منذ الأيام القديمة (فجعلت مظهرها) مثل اطلال الركام (بفعل) الطوفان".

أو كما وصف في موضع آخر من كتاباته حملته ضد بلاد خاتِ(لم يعرف موقعها حاليا) قائلاً بخصوصها:

"بشجاعتي وبالوسائل التي وضعها سيدي آشور في يدي من الأسلحة القوية لإخضاع غير الخاضعين، أمرني باتساع حدود بلاده، ٤٠٠٠ كَسكُ Kasku وأُرُمُ Urumu من الفرق غير الخاضعة العائدة لبلاد خاتِ الذين سيطروا بالقوة على مدن عائدة لبلاد شُبارتو Šubartu والتابعة لسيدي آشور سمعوا بقدومي إلى بلاد شُبارتو ، قهرتهم عظمة شجاعتي فخشوا المعركة فخضعوا لي"[٢١].

أو كما عبر الملك سين–آخي–ريبا في إحدى حولياته الملكية بشأن مجموعة من المدن المتمردة ضد النفوذ الآشوري و الواقعة على حدود بلاد كتموخ قائلاً بخصوصهم:

"في ذلك الوقت مدن تُمُرَ Tumurra وشَرِم Sharim وخَلكِدا Halgidda وكِبشَ Kibsha واِساما Esâma وكوَ Kûa و كَنا Kana التي تقع عند حدود بلاد كتموخ على قمة جبل نيپور Nipur مثل عش النسر والتي كانت قوية ومتغطرسة ولم تعرف الخوف من حكم بلاد آشور منذ القدم (في عهد) أبائي الملوك"[٢٢].

وأحياناً ما كانت تلك المفاهيم تأخذ منهجاً آخر في تعابير الملوك الآشوريين من ذلك على سبيل المثال ما أقر على لسان الملك آشور–بانِ–ابل عندما وصف بمرارة تمرد أخيه شمش–شم–اوكن ضده قائلاً بخصوصه:

"شمش–شم–اوكن الأخ العاق الذي عاملته بإحسان ونصبته ملكاً على بلاد أكد وكلدو وارامو وبابل الذي × × × × الآلهة العظيمة نظرت إلى أعماله الشريرة وإلى × × × × عليه الذي اضعف سلطتي، فرضت عليه عقوبة ثقيلة"[٢٣].

فعبارة أضعف سلطتي كما وردت على نحو صريح في النص الملكي الآشوري تنم عن إخفاق طال الملك الآشوري في فرض سيطرته على بابل والقضاء على الثورة التي حصلت فيها بدليل ما ورد في أحد نصوص التاريخ التعاصري الذي يظهر خسارة الجيش الآشوري أمام نظيره البابلي إذ نقرأ الآتي:

"في السنة السابعة عشرة في اليوم التاسع من شهر أيلول الكبيس شمش–شُم–اوكن × × × حشد جيشه وتقدم نحو مدينة كوثى وأخذ المدينة وقهر جيش بلاد آشور والكوثيين"[٢٤].

وبموجب الأدلة النصية التي نمتلكها بهذا الخصوص يمكن تقسيم مظاهر الإخفاق إلى محورين هما إخفاقات سياسية واخرى عسكرية

١. إخفاقات سياسية:

كثيراً ما شكلت حركات التمرد والعصيان Bārānû و Sihitu و Sehû و Nabalkutu و Hammā'u التي كانت تحدث في بعض البلدان الخاضعة للسيطرة أو النفوذ الآشوري إحدى أبرز المؤشرات السياسية الخطيرة على زعزعة أمن المملكة وتجزئتها وإضعافها سياسياً واقتصادياً[٢٥]، فمن الناحية السياسية فإنها تمثل تخلي تلك البلدان عن بنود المعاهدات التي عقدتها مع المملكة الآشورية ورفضها المطلق للسلطان الآشوري، وأما من الناحية الاقتصادية فمنذ أقدم الفترات التأريخية المعروفة مثلت الهبات Tamartu و Kadru والإتاوات Biltu و Maddattu السنوية التي كان يقدمها الملوك والحكام لبلاد آشور أهمية اقتصادية كبيرة للملكة الآشورية، إذ كانت تعد إحد المصادر المهمة التي تؤمن مستلزمات القصور المتنامية من السلع الترفيهية والكمالية فضلاً عن أهميتها السياسية بوصفها تمثل وجهة نظر دافعيها والتي يمكن وصفها تبعاً للظروف بأنها كانت تقع بين التحالف والتبعية وبمرور الزمن أخذ هذا النوع من العلاقة مع بلاد آشور سواء بطلب من أولئك الحكام أو تحت الضغط الآشوري يتجه ليصبح تحت سيطرة من نوع أمري وذلك إذا قدمَّ مثل هؤلاء الحكام الخضوع الرسمي، ومن ثم توانوا أو امتنعوا في أيّ وقت ما عن دفع تلك الهبات والإتاوات فإن عدم دفع المتراكم منها كان يعدّ ذلك مؤشر ضعف للملوك الآشوريين وعملاً تمردياً ضد المملكة بأسرها، ولَعلّ هذا ما حصل فعلاً في عهد الملك الآشوري آشور-بيل-كالا (١٠٧٤-١٠٥٧ق.م) الذي اعتلى العرش بعد أخ حكم أقل من سنتين، وهو اشريد-ابلُ-ايكور (١٠٧٦-١٠٧٥ق.م) حيث تتحدث حولياته بأسلوب متحذلق عن عملية عسكرية سريعة ضد المناطق الجبلية الشمالية لبلاد آشور، وقد ادعى نجاحات عسكرية ربما تحققت، ولكن المهم أنه على الرغم من ذكر الغنائم التي أخذت من الآشوريين فإنه ليس هناك كلمة واحدة حول إتاوة جلبت إلى بلاد آشور من التابعين الذين تم قهرهم[٢٦]، ربما لأسباب تتعلق بازدياد الضغط الآرامي الذي شهدته كل من بلاد بابل وآشور من بعد حكم أبيه توكلتي-أبل-ايشرا الأول وعدم تمكن آشور-بيل-كالا من تقديم طلب العون والإمدادات العسكرية لملك بابل مردوك-شابك-زير-ماتي (١٠٨٠-١٠٦٨ق.م) على إثر هجوم اتحاد من رؤساء الآراميين وسيطرتهم على بابل مما اضطر عليه الاعتراف بالملك الآرامي الغاصب ادد-ابال-ادينام (١٠٦٧-١٠٤٦ق.م) حيث أدت تطور الأحداث إلى تدخل الآراميين في طرق التجارة والاستحواذ عليها مما اثر ذلك إلى حدوث ضائقة اقتصادية واضطرب اجتماعي في بلاد آشور أدى في نهاية المطاف إلى حصول تمرد داخلي ونهاية عهد آشور-

بيل–كالا[٢٧]. لذلك كثيراً ما كانت تلك المواقف تلزم ملوك بلاد آشور الأقوياء القيام بعمل عسكري بهدف إجبار أولئك الحكام على الاستمرار بتقديم تلك الهبات أو الإتاوات بدليل ما جاء في إحدى حوليات الملك ادد–نيراري الثاني (٩١١–٨٩١ق.م) عندما تحدث عن بعض المدن التي امتنعت عن دفع الضريبة والإتاوة آشور قائلاً بخصوصهم:

تقدمت نحو مدن سيكور و سابانو التي امتنعت (انسحبت) عن دفع الضريبة والإتاوة لسيدي آشور منذ عهد توكلتي–ننورتا (الأول) ملك بلاد آشور أبن شلمانُ–اشريد (الأول) الذي هو أيضاً ملك بلاد آشور والأمير الذي سبقني حاصرت مدن سيكور و سابانو وحاربتهم وسددت عليهم خسارة فادحة".[٢٨]

كما نقرأ في إحدى كتابات الملك ادد–نيراري الثالث (٨١٠–٧٨٣ق.م) ما ذكره بخصوص ملوك بلاد خاتِ:

"ملوك بلاد خاتِ الواسعة أصبحوا أقوياء في عهد والدي شمش–أدد (الخامس) وامتنعوا عن إتاوتهم، بأمر آشور ومردوك وأدد وعشتار الآلهة التي دعمتني وبتألق رهبتي قهرتهم وخضعوا لي جلبوا الإتاوة والضريبة إلى بلاد آشور واستلمتها"[٢٩].

ولعلّ السبب الرئيس في امتناع بلاد خاتِ عن تقديم الإتاوة للملك الآشوري شمش–أدد (الخامس) هي نتيجة الثورة التي شهدتها بلاد آشور نهاية حكم شلمانُ–اشريد الثالث فقد كان هناك صراع على السلطة قبل بضع سنوات من وفاة شلمانُ–اشريد الثالث يتزعمه اثنان من أبناء الملك المذكور هما آشور–ديان–اَبلَ Aššur-da"in-apla وشمشي–ادد الخامس(٨٢٣–٨١١ ق.م).

ويذكر الخليفة المنتصر وهو شمشي–أدد الخامس أسماء سبع وعشرين مدينة من المدن الثائرة وقد ضمت هذه المدن مع عدد من المدن الإقليمية، مدن بلاد آشور الرئيسة مثل نينوى وأربيل وآشور وارابخا، وقد أدت هذه الاضطرابات إلى أضعاف السيطرة الآشورية على الأقاليم الشمالية الغربية نهاية عهد شلمانُ–اشريد الثالث ففسحت المجال لاورارتو بأن تتوسع حتى أعالي نهر الفرات، حيث أثار ذلك تابعين آخرين في الفلك الآشوري في كل من شمال سوريا وجنوبها أنعكس ذلك في امتناع مدن واسعة عن دفع الإتاوة لبلاد آشور في عهد الملك شمشي–أدد الخامس[٣٠]، وربما لم تكن الثورات وسوء الأوضاع الداخلية التي مرت على المملكة الآشورية هي السبب الرئيس الوحيد في امتناع أو انسحاب عدد المدن التابعة للنفوذ الآشوري عن تقديم الإتاوة لبلاد آشور، أنما أيضاً تعاظم قوة بعض المدن أمام ضعف السلطة المركزية الآشورية كان سبباً في انسلاخها من التبعية الآشورية حيث تردنا أخبار عن تمردات حصلت في عدة مدن منذ

عهد الملك أدد–نيراري الثالث وحكم أبنه شلمان–اشريد الرابع (٧٨٢–٧٧٣ق.م) إذ حققت اورارتو في عهد آخر ملوك هذه الفترة وهو آشور–نيراري الخامس (٧٥٤–٧٤٥ق.م) انتصاراً سياسياً وربما عسكريا في شمال سوريا إذ ادعى نظيره الأورارتي وهو ساردوري الأول أنه فتح بلاد آشور–نيراري ملك بلاد آشور من دون ذكر تفاصيل أكثر إلا أنه ذكر اسم مكان يشير إلى أنه في الحدود الآشورية قرب كركميش ولم يكن آشور–نيراري الخامس في مركز يمكنه من الرد العسكري القويّ، حيث اكتسح الأورارتيون المنطقة واخذوا من الآشوريين جميع المناطق الواقعة شمال كركميش وغربها تقريباً، وبذلك سلبوا آشور السيطرة على تجارة المعادن في آسيا الصغرى مما أدى إلى حدوث ضعف في القابلية العسكرية الآشورية إذ أصبحت جميع المناطق التي اعتمدت عليها آشور في تجهيز الخيل في أيدي الاورارتيين، فضلاً عن الضائقة الاقتصادية الناشئة عن قطع الطرق التجارية الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى قيام ثورات في عدد من المدن من ضمنها كلخُ (كالح) عام ٧٤٦ق.م انتهت باغتيال الملك آشور–نيراري الخامس مع جميع أفراد العائلة المالكة[٣١].

ومن الأسباب الأخرى التي يمكن ذكرها هي تلك الأسباب المتعلقة بإستراتيجية الملوك الآشوريين في تجهيز الحملات ومواجهة التحديات تبعاً لحجم الخطر الذي تمثله على المملكة بأسرها ولعلّ خير دليل يمكن أن نستشهده في هذا الصدد ما حصل في بلاد بابل في عهد الملك الآشوري شروكين الثاني، (سرجون الثاني) ٧٢١–٧٠٥ق.م إذ فقد الملك المذكور نفوذه في هذه البلاد مدة تزيد على اثنتي عشرة سنة بسبب انشغاله في حروبه على صعيد الجبهة الشمالية ضد مملكة اورارتو والقضاء على حركات التمرد التي حصلت على صعيد الجبهة الغربية ضد مدن بلاد الشام وعدم احتوائه للمشاكل البابلية المتجددة وذلك عندما قام مردوك–ابلا–ادينا الثاني من قبيلة يَاكين الكلدية باغتصاب العرش البابلي مدة اثنتي عشرة سنة حيث دفعته ثقته الزائدة بقوته وبالدعم الذي لاقاه من خَمبَنِكَش Hambanigash (الأول) ملك بلاد عيلام بانتهاك قسم اليمين بتبعيته لبلاد آشور والامتناع عن إتاوته، كما جاء ذلك على لسان الملك الآشوري نفسه عندما وصفه في إحدى حولياته الملكية قائلاً بخصوصه الآتي:

"مردوك–ابلا–ادينا ابن ياكين ملك كلدو بذرة الجريمة (المجرم) داعم الشيطان الشرير الذي لم يخشَ من اسم سيد الأسياد ووضع ثقته بالبحر القاسي (مع) أمواجه المتلاطمة وانتهك القسم بالآلهة العظيمة وامتنع عن هباته. *خَمبَنِكَش* ***العيلامي الذي جلب (له) مساعدة كل سُتُ*** ***Sutu*** *أقوام الصحراء وتسبب بثورة ضدي وأعد لمعركة وجعل ذلك نزولاً باتجاه بلاد سومر وأكد.* ***حكم اثنتي عشرة وأدار بابل مدينة سيد الآلهة العظيمة ضدّ رغبة الآلهة بأمر آشور أب الآلهة والسيد العظيم مردوك جعلت عرباتي الحربية بأهب الاستعداد ونصبت مخيمي بموجب ذلك وأعطيت الأمر بالتقدم ضد الكلديين الأعداء الخونة"***[٣٢].

وعلى الرغم من أن الملك الآشوري لم يخبرنا عن نتيجة المعركة التي خاضها ضد ملك بابل لكن على ما يبدو أنها لم تكن لمصلحة الآشوريين، إذ لاقى الجيش الآشوري أثناء زحفه ضدّ مردوك–ابلا–ادينا في السنة الثانية من حكمه الجيش العيلامي بقيادة ملكه خَمبَنِكَش عند مدينة الدير Dēr (على الحدود العراقية الايرانية قرب بلدة بدرة)، وأوقع الهزيمة بالجيش الآشوري كما ورد ذلك في أحد نصوص التاريخ التعاصري، إذ نقرأ:

"السنة الثانية العائدة لـ مردوك–ابلا–ادينا (الثاني) خَمبَنِكَش (الأول) ملك بلاد عيلام حارب ضد شرو–كين (الثاني) ملك بلاد آشور في منطقة الدير، وأوقع تقهقر بالآشوريين وسدد عليهم خسارة فادحة" (٣٣).

ولعل حقيقة هذه الواقعة يمكن إثباتها من وجهه نظر آشورية وذلك من خلال رسالة مرسلة إلى الملك الآشوري من قبل شخص لا يعرف اسمه بسبب كسر في مقدمتها يخبر الملك بخصوص قيام بعض القبائل الآرامية في بلاد بابل بالهجوم وإحراق كل الحصون العائدة للملك الآشوري بعد انسحابه من مدينة الدير إذ نقرا الأتي :

"بعد انسحاب الملك من مدينة الدير في ذلك الوقت عندما بدا الـ لوخياتي Luhayati بأعمال العداء مع الـ يسوبينس Iasubeans هاجمو الأسوار واحرقوا كل الحصون العائدة للملك وقاموا بمهاجمة الرجال العائدين لحاكم مقاطعة مزاموا Mazamua" (٣٤).

ولم يستطيع الجيش الآشوري بعد تلك الحادثة من أعادة الكرة مرة أخرى وفرض سيطرته على كل بلاد بابل حتى السنة الثانية عشرة من حكم مردوك–ابلا–ادينا حيث تمكّن منه شرو–كين (الثاني) بعد قضائه على مملكة اورارتو، إذ هرب الأول إلى بلاد عيلام واعتلى الأخير العرش البابلي بدليل ما جاء في أحد نصوص التاريخ التعاصري، إذ نقرأ:

"السنة الثانية عشرة من (حكم) مردوك–ابلا–ادينا (الثاني) شرو–كين (الثاني) زحف نحو بلاد أكد وخاض معركة ضدّ مردوك–ابلا–ادينا، انسحب مردوك–ابلا–ادينا من أمامه وهرب إلى بلاد عيلام لاثنتي عشرة سنة حكم مردوك–ابلا–ادينا بلاد بابل جلس شرو–كين على عرش بلاد بابل" (٣٥) .

٢- إخفاقات عسكرية:

واجهت المملكة الآشورية في عهد نموها وتعاظم سلطانها أخطاراً جسيمة وتحديات مرت على أشهر ملوكها وهم في سعيهم إلى توطيد أُسس المملكة والحفاظ على الأمن والنظام في المنطقة القائمة على القوة الآشورية، تمثلت في تفاقم خطر القوى الخارجية المجاورة ومحاولاتها لبسط سيطرتها والتخلص من النفوذ الآشوري، فضلا عن إخفاقات عاناها الملوك الآشوريين في الحدّ من تأثير تلك القوى أو الأقوام التي حاربوها فأتى هذا الأمر واضحاً في كتاباتهم الملكية وبعض كتابات الشعوب التي نازعتهم في ذلك، وبموجب الأدلة التي نمتلكها في هذا الخصوص يمكن أن نحصر مظاهر الإخفاق تبعاً للجهات والأقوام في الآتي:

١- الجهة الجنوبية والمتمثلة بالأقوام البابلية:

لم تكن بلاد بابل بمنأى عن التوسع الآشوري نحو إقليم غني بالخيرات وطرق المواصلات المؤدية إلى الخارج عن طريق الخليج العربي(البحر السفلي/المر). حيث شهد تاريخ هاتين المملكتين (البابلية والآشورية) صراعات عسكرية وسياسية قاسية تراوحت بين حروب دفاعية وهجومية تكبد فيها الطرفان خسائر جسمية ، حيث بدأت المملكة الآشورية بعد تخلصها من السيطرة الميتانية في عهد الملك الآشوري آشور-اوبلط الأول (١٣٦٥-١٣٣١ق.م) تمارس ضغطاً مباشراً على بلاد بابل عندما اقبل الملك آشور-اوبلط الأول على تزويج ابنته للملك الكشي بور-نابورياش الثاني (١٣٧٥-١٣٤٧ق.م)، إذ كانت هذه المصاهرة البداية الحقيقة للتدخل الآشوري في الشؤون الكشية فما أن توفي الملك بورنابورياش الثاني وتولى العرش بعده ابنه كاراخرداش وهو حفيد الملك آشور-اوبلط الأول حتى حدث تمرد كبير في بابل راح ضحيته الملك كاراخرداش نفسه، وتولى العرش من بعده شخص دخيل على العائلة الملكية، اسمه نازيبوكاش وفي تلك اللحظة تدخل الجيش الآشوري وتمكن من القضاء على التمرد وقتل مغتصب العرش وتنصيب الحفيد الآخر لآشور-اوبلط وهو كوريكالزو الثاني (١٣٤٥-١٣٢٤ق.م) ملكاً على بابل ولم تنتهِ أبعاد المصاهرة عند هذا الحدّ إذ ما أن مات آشور-اوبلط حتى تفجر الصراع بين الطرفين الكشي والآشوري على إثر مطالبة الملك الكشي كوريكالزو الثاني بعرش المملكة الآشورية لنفسه بعد أن جلس انليل-نيراري الأول (١٣٢٩-١٣٢٠ق.م) على العرش الآشوري وأدى هذا الأمر في النهاية إلى وقوع عدة مواجهات بين الطرفين دامت لسنوات طويلة وقعت فيها بلاد بابل بين فكي كماشة آشورية عيلامية أنهت السلالة الكشية الحاكمة على إثر هجوم القوات العيلامية بقيادة الملك كوترناخونتي واقتياد آخر الملوك الكشيين انليل-نادن-اخي أسيراً إلى بلاد عيلام. (٣٦)

وتوجد منذ عصر السلالة الرابعة (١١٥٦-١٠٢٥ق.م) تردد إشارات نصية صريحة إلى إخفاقات عسكرية عاناها الملوك الآشوريون في حملاتهم ومنازلاتهم العسكرية ضدّ بلاد بابل لعلّ أبرزها كان في زمن الملك البابلي مردوك-نادن-اخي (١٠٩٨-١٠٨١ق.م) المعاصر لحكم الملك الآشوري توكلتي-ابلُ-ايشرا الأول، حيث قّوى هذا الملك إقليم بلاد بابل في السنوات الأولى من حكمه في المنطقة الواقعة ما بين الزاب الأسفل وديالى وقهر بلاد آشور على ما يبدو في معركة على المناطق الحدودية في السنة التاسعة من حكمه حيث تجرأ على الغارة على بلاد آشور الأم ضد مدينة ايكلاتم شمال آشور [٣٧]. عندما قام بسرقة تماثيل الآلهة الآشورية أدد و shala من المدينة المذكورة وقد جاء ذكر هذه الحادثة بعد أكثر من أربعة قرون في كتابات الملك سين-اخي-ريبا عندما أشار إلى هذه الواقعة بالقول:

"في عهد توكلتي-ابل-ايشرا ملك بلاد آشور، مردوك-نادن-اخي ملك بلاد أكد أخذ آلهة مدينة ايكلاتم أدد و shala وجلبهم إلى مدينة بابل لأربعة قرون وأربع عشرة سنة مضت جلبتهم من بابل واعدتهم إلى موضعهم في ايكلاتم" [٣٨].

كما لاقى الآشوريون أخفاقاً أخراً على يد الملك مردوك-نادن-اخي أيضاً وذلك في السنة العاشرة من حكمه إذ وردت في إحدى أحجار الحدود البابلية (كدورا) العائدة لتلك السنة عبارة موجزة تقول:

$^{d.}$AMAR.UT.ŠÌ.ŠEŠ.MEŠ LUGAL E i-na li-ti ša KUR AŠ ŠEŠ[٤٠]

"مردوك-نادن-اخي ملك بابل خلال النصر الذي هزم به آشور".

فعلى الرغم من عدم ذكر تفاصيل عن مكان الحدث أو الانتصار لكن من خلال دراسة مضمون كدورا والخاص بمنح أراضٍ للجنود في منطقة تقع أقصى شمال بابل إلى الشرق من دجلة فإنه من الممكن الافتراض ان المعركة وقعت على الحدود البابلية الآشورية[٤٠]. كما كان الإخفاق أيضاً مصير الجيش الآشوري في منازلة ضد البابليين بقيادة مردوك-ابلا-ادينا (الثاني) رابع ملوك سلالة بابل العاشرة، عندما ادعى هذا الملك في أحد نصوصه الملكية انتصاره عليهم متفاخراً بالقول:

"(مردوك-ابلا-ادينا ملك بلاد بابل) الذي بقوة السيد العظيم الإله مردوك والآلهة المغوارة، الإله utulu قهر جيش سوبارتو Subartu الواسع الانتشار وحطم أسلحتهم وجلب هزيمتهم ومنعهم من أن يطؤوا على أرض بلاد أكد" [٤١].

ويظهر من قراءة الأحداث ان ادعاء مردوك–ابلا–ادينا بالنصر كان في محله، بدليل ما ورد في إحدى حوليات الملك الآشوري سين–اخي–ريبا إذ قال فيها:

"أرسلت أمامي الـ رب–شاقي وحكامي إلى مدينة كيش مع أمر بأخذ الطريق ضد مردوك–ابلا–ادينا والتقدم مع المراقبة عن كثب، ذلك الشخص رأى حكامي فهجم مع كل قواته على بوابة الإله zamama وخاض معركة ضدّ قادتي في سهل مدينة كيش، وبخصوص قادتي فقد كان هجوم الأعداء ضدهم في الحرب قوياً لذلك لم يستطيعوا الصمود أمامه، فأرسلوا رسلهم لطلب المساعدة من حضرتي عندما كنت في منطقة بجوار مدينة Kutha بغضب قلبي قمت بغارة على مدينة كوثى ونبحت الجنود الذين على أسوارها مثل الحيوانات الوحشية..... غضبت مثل الأسد واقتحمت مثل العاصفة بواسطة محاربي عديمي الرحمة وأدرت وجهي ضد مردوك–ابلا–ادينا (الذي هو) في كيش، ذلك عامل الشر رأى تقدمي من بعد فخيم عليه الرعب فهجر كل قواته وهرب إلى مدينة كوزومانو Guzummanu"[٤٢].

وعلى الرغم من قهر مردوك–ابلا–ادينا على يد الملك سين–اخي–ريبا غير أن هذا الأمر لم يشير إلى نهاية التمرد البابلي والقضاء على جيوب المقاومة، بل ربما كان ذلك إيذاناً لبداية حراك شعبي نحو التخلص من السيطرة الآشورية، والذي لم يتضح عظيم شأنه إلا بعد ضعف الحكومة المركزية الآشورية في نهاية حكم الملك آشور–بانِ–ابل وتولي أَبنائه العرش الآشوري من بعده إذ شهدت المملكة الآشورية في هذه الفترة تهديداً خطيراً من بلاد بابل لكن هذه المرة كانت من قبل احد حكام الأجزاء الجنوبية (القطر البحري) من بلاد بابل ومن التابعين للدولة الآشورية وهو نبو–ابلا–اصر (نبوبلاصر) الكلدي حيث تمكن من تأسيس سلالة ملكية في تلك الأجزاء من بابل بعد تمرد ضد الوجود الآشوري عام ٦٢٦ق.م وإعلان نفسه ملكاً على القبائل الكلدية فكان ذلك إيذاناً ببداية السلالة الكلدية (سلالة بابل الحادية عشر) وقد بلغ هذا الملك من القوة إلى الحدّ الذي استطاع معه قهر الحاميات الآشورية المرابطة في بعض مدن الجنوب، حيث جاءت تفاصيل حملاته المظفرة على القوات الآشورية في نصوص التاريخ التعاصري، إذ نقرأ:

"جيش بلاد آشور وجيش مدينة نيبورالا Nippurālā اتبعوه (نبو–ابلا–اصر) إلى وسط مدينة الوركاء وخاضوا حرباً ضد نبو–ابلا–اصر في الوركاء وقهروا أمام نبو–ابلا–اصر. في شهر أيار زحف جيش بلاد آشور نحو بلاد أكد في اليوم الثاني عشر من شهر Tishri عندما تقدم جيش بلاد آشور ضد مدينة بابل، البابليون خرجوا من مدينة بابل في ذلك اليوم خاضوا حرباً ضدّ جيش بلاد آشور وسددوا على جيش بلاد آشور خسارة فادحة وسلبوهم"[٤٣].

وفي السنة الثانية من حكم نبو–ابلا–اصر عاود الجيش الآشوري الكرة مرة أخرى بالزحف ضدّ بلاد أكد لاسترداد ما أخذه الملك البابلي بالقوة، غير أن الخسارة والإخفاق كان مصير الآشوريين أيضاً في هذه المنازلة بدليل ما ورد في أحد نصوص التاريخ التعاصري إذ نقرأ الآتي:

"في السنة العائدة لـ نبو–ابلا–اصر وفي بداية شهر أيلول زحف جيش بلاد آشور نحو بلاد أكد واقام مخيم على قناة بانيتو Banitu وخاض حرباً ضد نبو–ابلا–اصر لكن لم ينجز شيئاً... وانسحب(٤٤).

وقد توالت إخفاقات الجيش الآشوري أمام نبو–ابلا–اصر حتى بلغ الملك البابلي إبان السنة العاشرة من حكمه من قوة مكنته من شن هجوم على بلاد آشور على طول ضفة نهر الفرات فاخضع لنفوذه سكان بلاد سوخي Hindaneans الذين تقدموا لإعطاء الإتاوة له، إذ نقرأ في أحد نصوص التاريخ التعاصري ما نصه:

"في السنة العاشرة من حكم نبو–ابلا–اصر في شهر أيار حشد جيش بلاد أكد وزحف على ضفة نهر الفرات سكان بلاد سوخي وخندانين Hindaneans لم يخوضوا حرباً ضده لكن وضعوا إتاوتهم أمامه، في شهر آب جيش بلاد آشور تجهزوا للحرب في مدينة كبلن Gablini. ذهب ضدهم نبو–ابلا–اصر في اليوم الثاني عشر من شهر آب خاض حرباً ضد جيش بلاد آشور فهزمه وسدد على بلاد آشور خسارة فادحة(٤٥).

وفي عام ٦١٦ق.م تقدم نبو–ابلا–اصر بجيشه نحو مدينة ارابخا حيث واجه الآشوريين عند مدينة تدعى Madanu موقعاً الهزيمة بهم، بدليل ما جاء في أحد نصوص التاريخ التعاصري إذ نقرأ فيه:

"في شهر آذار جيش بلاد آشور وجيش بلاد أ كد خاضوا حرباً أحدهما ضد الآخر في مدينة Madanu العائدة لمدينة ارابخا فقهر جيش بلاد آشور أمام جيش بلاد أكد وسدد عليه (جيش بلاد آشور) خسارة فادحة وردهم نحو نهر الزاب واستولوا على عرباتهم وخيولهم وسلبوهم بشكل واسع واخذوا العديد ×××× معهم وعبروا نهر دجلة وجلبوهم إلى مدينة بابل(٤٦).

الجهة الشمالية والشمالية الشرقية:

لم تكن الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية اقل وطئاً من نضيرتها الجنوبية ضد التوسع الآشوري نحو تلك المناطق ، فقد واجهت المملكة الآشورية في سبيل بسط سيطرتها على الطرق التجارية وتامين مصادر الحديد والخيول اللازمة لبناء جيوشها الجرارة ضغوطاً وتحديات ربما كانت هي

الأقوى في تاريخها تمثلت بالأقوام والممالك التي حاربتها ولعل في مقدمتها هي الأقوام الاورارتية بدليل ما تم الإشارة إليه سلفا عندما أقدم الاورارتيون بقيادة ملكهم ساردوري الأول على اكتساح المناطق الواقعة شمال كركميش وغربها في عهد الملك الآشوري آشور _ نيراري الخامس ،ويظهر أن خطر تلك الأقوام لم يتوقف عند هذا الحد بل استمر حتى عهد الملك شروكين – الثاني بدليل ما جاء في رسالة بعث بها لبخور–بيل Liphur-Bêl حاكم مقاطعة اميدي Amidi إلى الملك الآشوري يخبره بخصوص قيام الاورارتيين باحتلال حصون عائدة لبلاد آشور قائلا الأتي :

" بخصوص أخبار الاورارتيون رسولي الذي أرسلته إلى الحاكم المواجه لي عاد وتكلم معه *كما* ***كتب لي سيدي الملك قائلاً لماذا تحتل حصوننا بينما نحن بسلام*** *(٤٧).*

فضلا عن الأقوام الميدية وهم قبائل قدمت إلى إيران من الشمال في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد وتمركزت في الهضبة الإيرانية جنوب شرق بحيرة أورمية، غير أن المشاكل التي واجهت النفوذ الآشوري في آسيا الصغرى منذ عهد الملك آشور–اخ–ادن كانت على أثر ظهور أقوام بربرية جابت أقساماً من آسيا الصغرى، هم الاسكيثيون المعروفون في المصادر المسمارية باسم اشكوزايا Ashguzaya فضلاً عن الجماعات الكميرية التي أعاد ظهورها في مقاطعة تابال وخيلاكو تحت ضغط الاسكيثيين قد أدت هذه الحال إلى انهيار النظام الأمني الآشوري الذي أقامه الملك توكلتي–ابلُ–ايشرا الثالث وشرو–كين الثاني وحافظ عليه سين–اخي–ريبا على طول الحدود الشرقية وبالتالي انفلات القبضة الآشورية على القبائل الميدية واستقرار تلك القبائل واتحادها في وحدات قوية حتى أصبحت في النهاية مملكة قادرة على مواجهة قوة الآشوريين العسكرية بدليل ما جاء على لسان ملوك بلاد آشور أنفسهم في النصوص التي يطلق عليها نصوص (التساؤل او الاستفسار من اله الشمس شمش) اذا نقرا في احد هذه النصوص من عهد الملك اشور_اخ_ادن مایاتي :

"الاله شمش السيد العظيم أعطاني الجواب الثابت بخصوص ماسالته . مدينة دور – اليل ***Dur-illil*** ***الحصن العائد لاشور –اخ –ادن ملك بلاد اشور والتي تقع على حدود بلاد المانيين والتي استولى عليها المانيون وامتلكوها وعسكرت قواتهم فيها هل ان فلان سوية مع الرجال والخيول والجيش سيذهب كما يرغب ويستولي على مدينة دور – اليل*** *(٤٨).*

او كما نقرا في نص آخر يعود إلى ابنه وخليفته في الحكم آشور – بان – ابل مايأتي

" الاله شمش السيد العظيم اعطاني الجواب الثابت بخصوص ماسالته. هل ان Nabu – sarru – usur رئيس موظفي البلاط والرجال والخيول وجيش آشور – بان – ابل ملك بلاد آشور الذي تحت امرته سيذهب ويسترد حصون بلاد آشور التي قهرها المانيين؟ اذا ذهب هل سيترد تلك الحصون من خلال مفاوضات الصداقة والسلام او من خلال شن الحرب او حيلة او خدعة"(٤٩)

إذ مكنها هذا الأمر أخيراً من الاستقلال عن التبعية الآشورية بزعامة أحد قادتها المدعو فرهارطس عام ٦٨٠ق.م(٥٠)، بدليل ما ورد عن المؤرخ اليوناني هيرودتس الذي أشار إلى هذه الواقعة في إحدى صفحات مؤلفه قائلا الآتي:

"أعلموا أن دول الآشوريين في آسيا الصغرى استمرت خمسمائة وعشرين عاماً حتى شقّ الميديين عليهم عصا الطاعة فحملوا السلاح في وجههم وقاتلوهم ونزعوا عن أعناقهم نير العبودية وباتوا أحراراً وكانت تلك مأثرة اقتدت بهم أمم أخرى قيض لها أن تستعيد استقلالها"(٥١).

وخلف فرهارطس بعد تلك الواقعة ابنه كي–اخسار الذي تمكّن من جعل القبائل الميدية جيشاً قوياً واتخذ اكتبانا (همذان) عاصمة له ووسع حدود مملكته وبلغ فيه من القوة انه زحف نحو بلاد آشور، إذ استولى على مدينة تربيصو الواقعة ضمن منطقة نينوى ثم سار بعد ذلك على طول نهر دجلة قاصداً مدينة آشور إذ بلغ المدينة المذكورة وأوقع الخسائر بالآشوريين، كما أكد ذلك أحد نصوص التاريخ التعاصري إذ نقرأ ما نصه:

في السنة الثانية عشرة من شهر آب الميديون بعد ما زحفوا ضدّ نينوى × × × بسرعة واستولوا على مدينة تربيصو المدينة التي تقع في منطقة نينوى وذهبوا على طول نهر دجلة ونصبوا مخيماً ضد مدينة Baltil (آشور) وخاضوا حرباً ضد المدينة و × × دمّروا ×× وسددوا خسارة مرعبة على السكان العظام وسلبوهم"(٥٢).

وفي هذه الأثناء لاقى الملك البابلي بالملك الميدي كي–اخسار عند أسوار آشور حيث عقدت بين الملكين معاهدة تحالف وصداقة كان نتائجها زواج ولي العهد البابلي نبوخذنصر الشهير من ابنة الملك الميدي المسماة اميتس(٥٣)، وزحف كلا الجيشين من بعد ذلك على العاصمة نينوى وكان الهجوم الأخير في عام ٦١٢ق.م قد قرر مصير الدولة الآشورية إذ سقطت العاصمة العظيمة على الرغم من ما أبداه المدافعون عنها من بسالة واستماتة في حصار دام طوال ثلاثة أشهر، وكان من النتائج المترتبة على ذلك انسحاب فلول الجيش الآشوري إلى مدينة حران بقيادة أحد أبناء الملك آشور–بان–ابل وهو آشور–اوبلط الثاني، غير أن بقاء الآشوريين في حران لم يدم طويلاً إذ سرعان ما لاحق الملك البابلي والميدي فلول الآشوريين إلى

تلك المدينة مسددين بحقهم خسارة عظيمة، كما أورد ذلك أحد نصوص التاريخ التعاصري إذ نقرأ فيه:

"في السنة السادسة عشرة في شهر أيار ملك بلاد أكد حشد جيشه وزحف نحو بلاد آشور، من شهر ××× حتى شهر Marchesvan تقدم بانتصار في بلاد آشور في شهر Marchesvan الى الاومندا Ummanmanda (الكميري) أتى لمساعدة ملك بلاد أكد وضعوا جيوشهم سوية وتقدموا نحو مدينة حران ضد آشور-ابلط (الثاني) الذي جلس على عرش بلاد آشور الخوف من الأعداء قهر آشور-ابلط..... ملك بلاد أكد وصل حران ××× واستولى على المدينة وحمل غنيمة ضخمة من المدينة والمعبد"[٥٤].

٢- الجهة الغربية والشمالية الغربية وتشمل:

أ- الأقوام الآرامية:

سبق أن أشرنا في أكثر من موضع إلى خطر الآراميين على بلاد آشور، عندما أخذت تلك القبائل تصارع الاموريين في ضخامة هجراتهم وكثرة قبائلهم وتنقلاتهم في بوادي الشام والأجزاء الشمالية من بلاد الرافدين (منطقة الجزيرة) إلى درجة تركوا تأثيراً كبيراً في المنطقة حينما أخذ اندفاع وتوسع تلك القبائل يهدد وجود دول وممالك بأسرها مثل المملكة الآشورية التي ما برحت أن دخلت في صراع معها لفترة دامت أكثر من ستة قرون عندما أفلحوا منذ القرن الثاني عشر في التوغل بغزواتهم بعيداً إلى ما وراء نهر الفرات مشكلين في ذلك خطراً حقيقياً على طرق المواصلات التي كانت تربط الممالك آنذاك بدليل ما جاء في رسالة بعث بها حتوشيل الثالث ملك الحثيين إلى ملك الكشيين كاداشمان- انليل الثاني (١٢٧٩-١٢٦٥ق.م) يخبره أن "الاحلاموا جعلوا الطرق بين المملكتين حافلة بالأخطار"[٥٥]، وعلى الرغم من الجهد الذي بذله ملوك العصر الآشوري الوسيط في الحدّ من خطر التوسع الآرامي المتزايد بتسيير الحملات العسكرية المتتالية بدليل ما ورد في إحدى كتابات الملك الآشوري آشور-بيل-كالا الذي أشار إلى حملاته المتتالية ضد الآراميين قائلاً بخصوصهم:

"في تلك السنة في الشهر نفسه (kislev) في حملة عسكرية ضد الآراميين قاتلهم عند مدينة šasiru والتي تقع في منطقة عائدة لمدينة ××× في تلك السنة في شهر تموز في حملة عسكرية ضد الآراميين قاتلهم عند مدينة ××× العائدة لبلاد ××× في تلك السنة في شهر أيار في حملة عسكرية ضد الآراميين قاتلهم عند مدينة Pauza التي على سفح جبل كاشياري في تلك السنة في الشهر نفسه في حملة عسكرية ضد الآراميين قاتلهم عند رأس مدين Nabula..... في تلك السنة وفي الشهر نفسه (Siŕan) في حملة عسكرية ضدّ الآراميين قاتلهم عند مدينة Tibuaxx الواقعة على نهر دجلة ..... الخ"[٥٦].

غير أن تلك الحملات أو الفتوحات الموفقة لم تكن على ما يبدو بالقدر الكافي في استئصال شأفة الآراميين والتخلص من نفوذهم وإلقاء أسلحتهم نهائياً حيث بلغ خطرهم أشده في نهاية القرن العاشر عندما أخذوا يسيطرون على القسم الأعلى من بلاد الرافدين كله ويضيقون الخناق على بلاد آشور لدرجة أيقظت آشور من غفوتها بشأن وضع الحد النهائي لخطر تلك الأقوام إذ استعادت هذه الأمة المحاربة مجدها التليد واستطاعت أن تتغلب على الصعاب وتسترجع ماضيها المجيد بفضل شجاعة بنيها وفطنة ملوكها إذ تمكنوا من استرداد ما قطعه الآراميون بالقوة من أراضيها، من ذلك على سبيل المثال ما جاء في إحدى كتابات الملك ادد-نيراري الثاني عندما قال:

"في لمو Likeru زحفت للمرة الرابعة نحو بلاد خانيكلبات في ذلك الوقت Muquru العائد لبلاد Temannu كسر القسم بالآلهة العظيمة وقصد محاربتي في معركة ونزال، وثق بمدينته المحصنة وقوسه القوي وفرقه الواسعة والآراميون الذين تمردوا ضدي حشدت عرباتي وجندي وزحفت نحو مدينة Gidara التي يطلق عليها الآراميون Raqammatu والتي أخذها الآراميون بالقوة بعد عهد توكلتي-ابل-ايشرا بن آشور-ريشَ-اِشِ Aššur-reš-ša ملك بلاد آشور الأمير الذي سبقني"(٥٧).

أو كما جاء أيضاً في كتابات آشور-ناصر-ابل الثاني (آشورناصربال الثاني ٨٨٣-٨٥٩ق.م) عندما ذكر في إحدى حولياته الملكية بخصوص حملته في بلاد الشام ضد Amme-ba'li رجل بيت-زماني Bīt-zamāni (لم يعرف موقع المكان حاليا)العبارة الآتية:

" استردت مدن Sinabu و Tidu الحصون التي ضبطها شلمانُ-اشريد (الثاني) ملك بلاد آشور الأمير الذي سبقني حامية (على حدود) بلدان نائيري Nairi والتي استولى عليها الآراميون بالقوة "(٥٨).

ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن ذكرها في هذا الصدد ما جاء على لسان الملك شلمانُ-اشريد الثالث الذي تحدث عن بعض المدن التي غزاها اثناء حملته العسكرية على نهر الفرات قائلاً الآتي:

"في ذلك الوقت مدينة Ana-Aššur-uter-asbat التي يطلق عليها سكان بلاد خاتِ تسمية پترُ Pitru والتي تقع على نهر Sagura مقابل ضفة نهر الفرات ومدينة Mutkinu التي تقع على ضفة نهر الفرات التي أسسها سلفي توكلتي-أبلُ-ايشرا الأول الأمير الذي سبقني في عهد آشور-رابي الثاني ملك بلاد آشور، ملك الآراميين أخذ (تلك المدينتين) بالقوة، تلك المدن أعدتها وأسكنت الآشوريين فيها"(٥٩).

لكن في الوقت نفسه يجب الاعتراف أنه على الرغم من توالي الحملات العسكرية الآشورية الموفقة ضد النفوذ الآرامي والتي حالت دون قيام الدولة الآرامية في الأقسام الشمالية في بلاد الرافدين وسوريا إلا أن القسوة التي واجهها الآراميون من ملوك بلاد آشور منذ عهد آشور–دان الثاني وجهت الموجات الأخير من القبائل الآرامية إلى بلاد بابل وتركزت في القسم الجنوبي الشرقي منها

المصريون

ومن القوى الأخرى التي واجهت الآشوريين على صعيد هذه الجبهة وكانت في رأينا أحد أبرز الأسباب الرئيسة في أنهاك قوة الأشوريين الحربية هي مصر، فقد أَدرك ملوك بلاد آشور منذ عهد سين–اخي–ريبا حقيقة الخطر الكامن التي كانت تمثله هذه البلاد من خلال تحريضها للمدن السورية والفلسطينية ضدّ الوجود والنفوذ الآشوري في المنطقة والعمل على بث الفتن والقلاقل ضدّ آشور في الممتلكات المتاخمة لها. فبدأ الملك آشور–أخ–ادن بإعداد العدة للقيام بمشروع حربي جسيم سبق أن شرع فيه أبوه سين–آخي–ريبا لكنه لم يفلح ونعني بالسيطرة على مصر وضمها إلى حدود المملكة الآشورية، فسار بجيوشه الجرارة واستولى على المدينة التي ورد ذكرها باسم ارزاني في وادي العريش وبلغ رفح جنوب غزة عبر صحراء سيناء وبعد مسيرة خمسة عشر يوماً بلغ حدود مصر حيث لاقى جيش مصر بقيادة طهرقة وقد أدعى الملك آشور–اخُ–ادن في إحدى كتاباته الملكية أنه حارب طهرقة ملك بلاد مصر خمس مرات برمحه وجلب كل بلاده تحت نفوذه وحكمه.

"طهرقة ملك بلاد مصر الذي حاربته خمس مرات برمحي وأخضعت كل بلاده تحت نفوذي وحكمتها"(٦٠).

فمن خلال تحليل أبعاد النص الملكي يظهر أن الملك الآشوري لم يحسم المعركة ضدّ نظيره المصري في جولاته الأربعة الأولى على أقل تقدير بدليل ما وردنا في أحد نصوص التاريخ التعاصري إذ نص على الآتي:

MU VII^{kám} ^{itti}Addaru UD V^{kám} ummāni KUR Aš-šur ina KUR mi-sir dikû^{meš}(٦١).

"السنة السابعة في اليوم الخامس من شهر آذار جيش بلاد آشور قُهر في بلاد مصر"

وفي السنة العاشرة من حكم آشور–اخ–ادن أعاد الكرة مرة أخرى حيث هزم جيش طهرقة في المعركة وحوصرت مدينة منف وفتحت وهرب طهرقة إلى جنوب مصر حيث مدينة طيبة (الاقصر حاليا)، وقد لقب الملك الآشوري آشور–اخُ–ادن بعد هذه الواقعة بملك مصر العليا

والسفلى وإثيوبيا وهو ادعاء تجاوز الحقيقة كما بينا ذلك آنفاً فما أن ابتعد الجيش الآشوري الرئيس إلا وعاد طهرقة واقنع بعض أمراء مصر السفلى لرفض السيادة الجديدة واستعاد منف ولم يستطيع آشور–اخُ–ادن في حينها من إصلاح الوضع والقضاء على طهرقة، بسبب وفاته وهو في طريق حملته إلى مصر في حران بعد ذلك استمر طهرقة في حكم مصر ثلاث سنوات بأمان لم يتمكن في حينها الملك الآشوري آشور–بان–ابل من القضاء عليه؛ بسبب انشغاله بأمور أخرى كإقرار المعاهدة التي خضع بموجبها ملك صور له وتنصيب شمش–شم–اوكن ملكاً على بلاد بابل. وفي عام ٦٦٧ق.م زحف جيش آشوري قويّ إلى مصر إذ تمكن من قهر طهرقة الذي هرب إلى طيبة ووقعت منف ثانية بأيدي الآشوريين. وفي تلك الأثناء حاول أمراء مصر العليا استعادة مصر السفلى من سيطرة الآشوريين، وذلك عند وفاة طهرقة عام ٦٦٤ق.م وقيام ابن أخيه تاشدَمَني Tašdamanê بالزحف باتجاه النيل حتى منف إذ تمكّن من قهر الفرق الآشورية المقيمة في هذه المدينة[٦٢] بدليل ما أكد عليه صراحة الملك آشور–بانِ–ابل في إحدى حولياته الملكية قائلاً الآتي:

"طهرقة الذي قهره رعب أسلحة سيدي الإله آشور مات في المكان الذي هرب إليه وبذلك فقد وضع Tašdamanê ابن أخيه نفسه على عرش ملوكيته وجعل مدينة Thebes و Heliopolis حصونه وجمع سوية قواته لمقاتلة الفرق الآشورية التي في منف حشد ونظم جنده في نزال. هؤلاء الناس أسرهم (في المدينة) وقطع عليهم الانسحاب. أتى الرسول السريع إلى نينوى واخبرني بذلك، للمرة الثانية في سنة ارتقائي العرش في حملتي الأولى وحملتي الثانية جعلت وجهتي إلى مصر واثيوبيا. سمع Tašdamanê ملك بلاد مصر واثيوبيا بتقدم جيشي ..... فهجر منس لإنقاذ حياته وهرب إلى Thebes"[٦٣].

ويتضح من مضمون النص الملكي أن استجابة آشور–بانِ–ابل كانت فورية فدخل الجيش الآشوري مصر مرة ثانية وذلك عام ٦٦٣ق.م وسارع Tašdamanê كما فعل عمه من قبل إلى الهرب وتقدم الجيش الآشوري هذه المرة نحو العاصمة القديمة طيبة التي أخذت ونهبت، في وقت تزامنت مع وفاة أحد أمراء مصر السفلى الموالي للآشوريين وهو نيخو حاكم سايس، فعمد آشور–بانِ–ابل إلى تعيين ابنه بسماتيك خلفاً عنه، والذي تمكن ربما بدعم من الآشوريين في مدّ نفوذه وسيادته على كل أمراء الدلتا الآخرين غير أن ولاء هذا الحاكم لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما لاقى التأييد والدعم من ملك ليديا جاجس Gyges (لم يعرف سنوات حكمه على نحو دقيق) بهدف التخلص من السيطرة الآشورية إذ تمكن بمساعدة هذا الملك من طرد الحاميات العسكرية الآشورية في مصر بين عامي ٦٥٨ و ٦٥١ق.م ونظراً للنفور الآشوري من تسجيل الهزائم التي لم ينتقم لها فليس غريباً أن لا تذكر حوليات آشور–بانِ–ابل تفاصيل الانسحاب الاضطراري من مصر، ومن المؤكد أن آشور لم تتمكن من القيام برد فعل فوري كان متوقعاً في العادة؛ بسبب الأحداث في بلاد بابل[٦٤].

الخاتمة

تشير نماذج الأدلة النصية فضلاً عن تحليل الأبعاد الحقيقية لمضامين البعض منها فإنه يمكن القول أن ما أقره الملوك الآشوريون في حولياتهم الملكية عبر سنين حكمهم المتعاقبة، ولاسيما تلك التي تطرقت بإسهاب إلى حملات الجيوش الآشورية ونتائجها وما عكسته المنحوتات الآشورية من مشاهد تلك الحملات يجب أن لا تؤخذ جميعها كحقائق ثابتة لا تقبل التأويل من دون التحقق من مدى مصداقيتها بقراءة وتتبع الأوضاع السياسية في المنطقة والأخذ بنظر الحسبان الجانب الدعائي في تلك الكتابات بهدف التفاخر بالقوة والشدة والعمل على إثارة روح الفزع والرهبة في نفوس الأعداء والأقوام الأخرى المجاورة لذا جاءتنا مليئة بالإطناب الذي ليس له حدود وبالتعظيم اللامتناهي لشخصية الملك الآشوري وبالمبالغة والإدعاء الواضحين في مضمونها.

فضلاً عن ذلك فإن أتساع رقعة المملكة الآشورية في عهد ابرز ملوكها قوةً بهدف السيطرة على الموارد الأولية وطرق التجارة عماد الحياة الاقتصادية في المملكة الآشورية آنذاك دفعت الأبناء والأحفاد للسير قدما للحفاظ على ميراث آبائهم وأجدادهم من خلال إصرارهم وتفاخرهم في تجهيز الحملات العسكرية المتتالية وتسيير الجيوش الفاتحة القائمة على رفد القوات المرتزقة من الأقوام المرحلة إلى صفوفها بهدف بسط الأمن والنظام في المنطقة القائمة على القوة والنفوذ الآشوري، فضلاً عن عدم تحلي البعض منهم بروح السياسة والدبلوماسية في احتواء المشاكل المتجددة في المدن والأقاليم الرافضة للسيطرة والنفوذ الآشورية وعدم اعترافهم الصريح بخسارة أو إخفاق في منازلاتهم العسكرية عن طريق تضليل الحقائق أمام الشعب الآشوري والادعاء بالنصر كلّ ذلك أدى في النهاية إلى أنهاك الجيش والقضاء على العنصر الآشوري النقي بما فيه ابرز ملوك بلاد آشور قوة وهو شروكين الثاني الذي تكتل في ارض الأعداء كما جاء ذلك على لسان ابنه وخليفته في الحكم سين –أخي –ريبا عندما حاول ان يوضح في احد النصوص الدينية أسباب مقتل أبيه في ارض الأعداء مدعياً في هذا النص الذي أطلق عليه تسمية **ذنب شروكين** الأتي

"موت ابي شروكين الذي ذبح في بلاد الأعداء والذي لم يدفن في بيته شغل فكري وقلتُ في نفسي دعني أتحقق بالوسائط لتوضيح ذنب ابي شروكين(٦٥)"

وبالتالي محق العقيدة العسكرية الآشورية القائمة على نصرة آشور وتحقيق أوامره. ولعلّ هذا ما يفسر لنا تداعي الأحداث في المملكة الآشورية من بعد حكم الملك آشور–بانِ–ابلُ وسقوط مدن آشور الرئيسة واحدة تلو الأخرى في مدة وجيزة، فلو كان السبب هو ضعف الحكومة المركزية الآشورية لوحدها كما يظن ذلك الكثير من الباحثين لكان الانهيار هو النتيجة الحتمية للملكة الآشورية منذ فترة سابقة من ذلك التاريخ عندما توالى على العرش الآشوري من بعد حكم الملك شلمانُ–اَشريد الثالث ملوك ضعاف لم يستطيعوا في حينها الحفاظ على ممتلكات المملكة والدفاع عن حدودها.

الهوامش

(1) Grayson, A.K., The Royal Inscriptions of Mesopotamia Assyrian Periods,
Volume 2 (RIMA.2), Assyrian Rulers of the Early First Millennium B.C. I (1119-859B.C) Toronto, 1991, P.26:94-100.

(2 RIMA, Vol.2, P.134:60-63.

(3) RIMA, Vol.2, P.133:16-19.

(4) Grayson, A.K., The Royal Inscriptions of Mesopotamia Assyrian Periods, Volume 1 (RIMA.1), Assyrian Rulers of the Third and Second MillenniumB.C (To 1115 B.C) Toronto, 1987, P.192:14-16.

(5) RIMA, Vol.1, P.207:6.

(6) RIMA, Vol.2, P.236:30-42.

(7) RIMA, Vol.2, P.14:89-94, Col.ii:1-9.

(8) RIMA, Vol.2, P.17:7-19.

(9) Grayson, A.K., The Royal Inscriptions of Mesopotamia Assyrian Periods, Volume 3 (RIMA.3), Assyrian Rulers of the Early First MillenniumB.CII (858-745 B.C) Toronto, 1996, P.29-30:3-6.

(10) RIMA, Vol.3, P.74:11-23.

(11) Tadmor, H., The Inscriptions Of Tiglath Pileser III King of Assyria, Jerusalem, 1994, P.79:1-2.

(12) Luckenbill, D.D., The Annals of Sennacherib, Chicago, 1924, P.82:41.

(13) Grayson, A.K., Assyrian and Babylonian Chronicles, New York, 1975, P.78:39-42.

(14) Grayson, A.K., Op.Cit, P.32-33:18-20, 27-30.

(١٥) ساكز، هاري، عظمة بابل، لندن، ١٩٦٦، ترجمة: عامر سليمان، الموصل، ١٩٧٩، ص١٠١
.ARAB,Vol,2,575

(16) RIMA, Vol.3, P.23:26-97.

(17) RIMA, Vol.3, P.36:25-32.

(18) RIMA, Vol.3, P.65:59-66.

(19) RIMA, Vol.3, P.75:34-37.

(20) RIMA, Vol.2, P.18:73-76.

(21) RIMA, Vol.2, P.97-102, Col.iii 1-2.

(22) Luckenbill, D.D., Op.Cit, P.64:12-21.

(23) Luckenbill, D.D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, Vol.2(ARAB) Chicago, 1926, P.358:926.

(24) Grayson, A.K., Op.Cit, P.129:7-9.

(25) Wiseman, D.J.,"Murder in Mesopotamia", IRAQ, Vol.36, P.252.

(26) RIMA, Vol.2, P.88-128.

(٢٧) ساكز، هاري، عظمة بابل، ص١٠٧.

(28) RIMA, Vol.2, P.152:84-86.

(29) RIMA, Vol.3, P.208:13-18.

(٣٠) ساكز، هاري، قوة آشور، لندن، ١٩٨٤، ترجمة: عامر سليمان، بغداد، ١٩٩٩، ص١٢٠.

(٣١) ساكز، هاري، قوة آشور، ص١٢٤.

(32) ARAB, Vol.2, P.14:31.

(33) Grayson, A.K., Op.Cit, P.73:33-35.

(34) CT,Vol ,54,No,8=SAA,Vol,17,No,172,7-8,e,9-10,r,1-6

(35) Grayson, A.K., Op.Cit, P.75:1-5.

(٣٦) الوردي، محمود فارس عثمان، الممالك في العراق القديم النشوء وأسباب السقوط ٢١١٢-٦١٢ق.م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، بإشراف الاستاذ الدكتور جابر خليل ابراهيم جامعة الموصل، ٢٠١١، ص٩٠-٩١.

(37) Brinkman, T.A., A Political History of Post-Kissite Babylonia 1158-722 B.C, Roma, 1968, 124.

(38) Luckenbill, D.D., Op.Cit, P.83:49-50.

(٣٩) العبيدي، خالد حيدر عثمان حافظ، أحجار الحدود البابلية (كدورو) دراسة تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، باشراف الاستاذ الدكتور عامر سليمان ابراهيم جامعة الموصل، ٢٠٠١، ص٧١.

(40) Brinkman, T.A., Op.Cit, P.126.

(41) Frame, G., Rulers of Babylonia From the Second Dynasty of Isin to the End of Assyrian Domination(1157-612 B.C), Toronto, 1994, P.137:16-18.

(42) Luckenbill, D.D., Op.Cit, P.50:21-26.

(43) Grayson, A.K., Op.Cit, P.88:8-13.

(44) Grayson, A.K., Op.Cit, P.89:25-28.

(45) Grayson, A.K., Op.Cit, P.91:1-4.

(46) Grayson, A.K., Op.Cit, P.91-92:11-13.

(47) ABL,548=SAA,Vol,5,No,2,obv,6-15

(48) SAA,Vol,4,No,31,obv,2-6

(49) SAA,Vol,4,No,267,obv,1-7

(٥٠) باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٧٣، ص٥٢٠.

(٥١) تاريخ هيرودت، ترجمة عبد الإله الملاح، أبو ظبي، ٢٠٠١، ص٧٧.

(52) Grayson, A.K., Op.Cit, P.93:24-27.

كما يتضح من أحد نصوص العصر البابلي الحديث (٦٢٦-٥٣٩ق.م) إن حجم الدمار الذي الحقه الجيش الميدي بمدينة آشور كان كبيراً إذ نقرأ ما نصه:"الدمار كبيراً والحرائق في كل مكان، مات أعداد كبيرة من الناس وأسر أعداد كبيرة من الناس × × × ونهب الـ × × × وسرق كل ما يمكن سرقه ونهبه".

Wiseman, D., Chronicels of Chalden Kings 626-556 B.C, London, 1956, P.58.

(٥٣) باقر، طه، المصدر السابق، ص٥٢٧-٥٢٨.

(54) Grayson, A.K., Op.Cit, P.95:58-64.

(٥٥) ساكز، هاري، عظمة بابل، ص.

(56) RIMA, Vol.2, P.101-102:Col.iii, 1-12.

(57) RIMA, Vol.2, P.150:49-53.

(58) RIMA, Vol.2, P.261:92-94.

(59) RIMA, Vol.3, P.19:35-38.

(60) ARAB, Vol.2, P.274:710

(61) Grayson, A.K., Op.Cit, P.84:19-20.

(٦٢) باقر، طه، المقدمة، ص٥٢٣.

(63) Piepkorn, A.C., Historical Prism Inscriptions of Ashurbanipal, Chicago, 1933, P.37:7-23.

(٦٤) ساكز، هاري، عظمة بابل، ص١٦٠-١٦١.

(65) SAA,Vol,3,No,33,obv,7-10